ملاحظات حول مفهوم «الغزو الثقافي» عربيّاً

ابراهيم محمود

«إنّني أمّحي أمام إنسان ليس بَعْدُ هنا،
وأنحني، من مسافة ألف سنة، أمام روحه»
مارتن هيدجر

ماذا يعني مفهوم «الغزو الثقافي»؟ أهو تعبيرٌ عن حالة لاتكافؤيّة بين ثقافتين، تحاول عبرها ثقافةٌ قويّة في أبعادها السياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة، القيامَ بخلخلة بنى ثقافة مجتمع آخر، بقصد التأثير فيها، وتشويه معالمها، ومحاولة إلحاقها وظيفيّاً وبُنيوياً بحركيّتها المعبِّرة عن مآلاتها الإيديولوجيّة؟ أم هو حالةُ مَنْ يتعرّض لعنفٍ اجتماعي وسياسي وتاريخي ـ من خلال ثنائيّة يُعتَمَد عليها هي ثنائيّة: داخل/ خارج ـ لا يستطيع إيجادَ حلٍّ لها، أوْ ليست لديه الإمكانيّة القادرة على ردِّ هذا العنف المتنوِّع؟ وأخيراً أهو وصفٌ لصراع بين ثقافتين، تسعى ثقافة منهما نتيجةً لوضعيّةِ القوّة التاريخيّة التي تعيشها إلى إيجاد الأسباب التي تبرِّر كلَّ الوسائل المعتمَدة لديها، من أجل تهميش الدرجة القيميّة للثقافة الأخرى؟

إنَّ المتمعِّن في الأدبيّات الفكريّة العربيّة المنمَّطة خاصّةً، لابُدَّ أن يلاحظ ـ سواء من خلال التحديد، أو عبر التلميح ـ كيف يجري التركيزُ على ما يُسمَّى بـ «الغزو الثقافي» الذي تتعرَّض له المنطقةُ العربيّة على الصُّعُد كافّةً: فهو غزوٌ يطول الأدبَ ليزيِّف هويّته في أشكاله التعبيريّة المختلفة؛ ويخترق حقولَ الفكر المتنوِّعة ليُهَيْكِلَها بأساليبَ لفظيّةٍ وبلاغيّة فارغة من المضمون؛ ويتجسَّد في الفنون المتعدِّدة ليجرِّدها من كلِّ معنى قيمي؛ ويتوضَّح في مختلف أوجه التواصل الاجتماعي بين الناس وفي معاملاتهم المختلفة، ماحياً فيها كلّ عمقٍ إنساني. وهو غزوٌ يمكن أن يُفهم بأكثر من معنى، وعلى أكثر من صعيد؛ والمعاني، كما الصُّعُدُ كلّها، تشكِّل كُلاًّ واحداً في النهاية:

ـ غزو الغرب المسيحي للشرق الإسلامي؛

ـ أو غزو الغرب («بإطلاق») للشرق («بإطلاق») في ثنائيّة قوميّة صارخة؛

ـ أو غزو الغرب الإمبريالي الاستعماري في مساره الطبقي، للمجتمعات المتخلِّفة التي تحكمها أنظمة لا تخفي ارتباطاتها الطبقيّة بنماذجها الغربيّة ذات المضمون الطبقي الرأسمالي الواحد...

وأشكال الغزو هذه ربّما تتداخل هنا وهناك. ولكن مفهوم الغزو الثقافي يظلّ أشبه بـ «شبح» يخيِّم في السماء الذهنيّة للأغلبيّة الساحقة من العرب: مثقَّفين وإعلاميّين وساسة رسميّين وسواهم.. ولعلَّ تمعُّناً أوّليّاً في هذه الخطاطة (المتعلِّقة بالغزو بتقسيماته المذكورة) يكشف لا عن فقر في المفاهيم المتداولة في تجلِّيها الثقافي عربيّاً فحسب، بل عن إيديولوجيا عاتية تحتُّ الأرضيّة الهشّة لفكر المثقَّف العربي: تلك التي ينطلق منها، ويعود إليها، متسلِّحاً بواقعٍ مختزل شبحي يؤكِّد اختزاليّته ذاته.

ولقد استطعنا في قراءتنا لحركيّة هذا الغزو وإشكالياته، عربيّاً، لملمةَ عدّة ملاحظات انتقاديّة، وهي:

١ ـ إنَّ مفهوم الغزو الثقافي ضالٌّ ومُضِلٌّ في آن، لأنّه يقيم علاقة بين حقيقتين: الأولى وهي «الغزو» عبارة عن تصوُّر مُؤدْلج، يُلحق به الواقع؛ والثانية (كلمة «الثقافي») عبارة عن علاقات قيميّة وأفكار تُتداول بين الناس، ليست ثابتة (وبين المجتمعات علاقات غير متكافئة، بحكم صيرورة التاريخ). الغزو مفهومٌ عسكري، تسلُّطي، عنفي؛ وأمَّا الثقافي فمفهوم مختلف، يحمل في داخله «بطبيعته» تواريخَ عدّةً تتصارع، لأنّه يجسِّد مجتمعاتٍ مختلفة في مساراتها القيميّة، وعلاقاتٍ لا تعرف الاستقرار، سمتُها الكبرى: التوتُّر، وعدم التوازن في العمق. وهو (أي مفهوم «الغزو الثقافي») مُضلٌّ، لأنّه يقدِّم واقعاً مختزَلاً، يجرِّده من جملة مكوِّنات تعيش مختَلفاتٍ ومتشابهاتٍ عدّة.

٢ ـ ومفهوم الغزو الثقافي يجرِّد ذاتَه ـ هو بذاته ـ من حقيقةِ معناه، من علامته الفارقة، ذلك أنّه يُطرح باعتباره دخيلاً على التاريخ ودخيلاً على جملة مفاهيم تعتبر غريبة عنه (كمفاهيم الصراع واللاّتكافؤ بين طبيعة التصوُّرات الاجتماعيّة، والبُنى الوظيفيّة لفكر مجتمع دون آخر)، ويُقدَّم بمفاهيم ذات طابع عسكري محض، في حينَ أنَّ المرئي والملموس والمسموع هي ما يميِّزها. والحقيقة التي تعيشها الثقافاتُ مجتمعةً، وما يُسمَّى بـ «الغزو الثقافي» ـ حيث تُحَوَّلُ الثقافةُ إلى بُعْدٍ واحد فقير مفقَر، خالٍ من التناقضات والنقائض ـ ثقافة ضدّيّة، أو تضادّيّة. فالثقافة في مجموعها، رغم اتّصافها بالخصوصيّة، لا تعرف حدوداً؛ بل هي فواصل قاطعة، تسمح لنا بتحديد جليّ لأركان كلّ ثقافة وهويّتها، انطلاقاً من مفهوم الخصوصيّة، وما يميِّزها من علاماتٍ فارقة.

٣ ـ ومفهوم الغزو الثقافي يحيل ما هو راهن ومعيش وحاضر إلى ما هو غائب، إلى صنف تآمري متآمِر، من موقع التضادّيات؛ فالغريب دائماً خارجيّ، وما يُعتَبر مرفوضاً ينتمي إلى الخارج «المشبوه» الذي تجب محاربته. وهذا الإجراء هو الذي يشوِّه الثقافة داتَها في مكوِّناتها المختلفة.

وانطلاقاً ممَّا تقدَّمنا به، فإنَّه بوسعنا إثارة الأفكار التالية:

١ ـ الثقافة باعتبارها كونيّةَ الطّابع

ليس ثمّة ثقافة يمكن اعتبارُها ذاتَ خصوصيّة استثنائيّة، أو مغلقة على نفسها. فالثقافة ـ كلّ ثقافة ـ كونيّة الطّابع؛ وطابع الثقافة الكوني يكمن في قدرة كلّ ثقافة على امتصاص (أو استيعاب) بعض كلمات وعناصر لغة أو ثقافة أخرى، وإعادة تركيبها بشكلٍ ما، لتتناسب وطريقةَ تصوُّرها للعالم (مادامت اللُّغةُ في الأصل اجتماعيّة؛ ومادام البشر، بمختلف انتماءاتهم، يتشابهون بقدراتهم العقليّة ويختلفون في الأساليب التي تمكّنهم من تلبية حاجاتهم وفهم عالمهم).

وهذا يعني أنّه توجد داخل كلّ ثقافة مجموعةُ ثقافات تفصح عن كينونتها، أو عن مرآويّتها (شفافيّتها) فيها، على أكثر من صعيد، ولكنّها تتجلّى داخل نسيج هذه الثقافة في النهاية. وكلُّ ادّعاء بـ «طهرانيّة» ثقافةٍ ما أو «عذريّتها» (أي بُعْدِها عن مؤثّرات ثقافة أخرى) هو من قبيل التقوى المزيّفة. فعظمة كلّ ثقافة تكمن في انفتاحها على الثقافات الأخرى، واعترافها بها، وتفاعلها معها على الصُّعُدِ كافّةً.

وهناك ثقافة تستطيع الادّعاء بأنّها فريدة تاريخها الإنساني، ووحيدةُ كونها. ليست هناك ثقافة لا تمارس تواصلاً بشكلٍ ما مع ثقافة/ ثقافات أخرى. فاللُّغات تختلف، والرؤى تختلف، والحضور الإنساني يختلف؛ لكن الكائن الثقافي، ومبدع الثقافة، والذي يشقى، ويتألّم، ويتأمّل ما حوله ـ وإن اختلفت درجة الرؤية ـ هو الإنسان بامتياز.

الثقافة «عزف منفرد» لتاريخ جمعي؛ ذلك أنَّ كلَّ لغةٍ تتداخل مع أُخرى، وكلاًّ منّا يتكلّم لغةً معيّنةً، هي لغته التي يُعرف بها كهويّة، ولكنّه ـ في نهاية الأمر ـ مسكون بكلِّ لغات العالم إنسانيّاً.

إنَّ عمر بن أبي ربيعة لا يعرف پول إيلوار ولا نيرودا ولا رسول حمزاتوف ولا نزار قباني، ولكن حضور الحبّ في قصائد هؤلاء هو الذي يجمعهم معاً، لأنّ الأرضيّة الإنسانيّة هي التي تجمع ما بينهم. وأنْ يكتب أفلاطون عن الجمهوريّة، والفارابي عن آراء أهل المدينة الفاضلة، ويحاول فوكو أن يكتب ما يشبه الجمهورية المعاصرة في **الكلمات والأشياء**... فهذا يعني أنَّ الثقافة أقوى من كلِّ حالة انفصال مصطنعة.

إنَّ ما يثيرني في المتنبّي العربي منذ قرون، ونيكولاس غيين الكوبي، ويانيس ريتسوس اليوناني، وناظم حكمت التركي، وشيركوبيكس الكردي، ومحمود درويش العربي مجدّداً... إلخ، هو حضور الإنساني المتميّز فيهم جميعاً، رغم اختلاف لغاتهم. فالثقافة «عزف منفرد» لتاريخ جمعي؛ ذلك أنَّ كلَّ لغة تتداخل مع أخرى، وكُلاًّ منّا يتكلّم لغةً معيّنة، هي لغته التي يُعرف بها كهويّة، ولكنّه ـ في نهاية الأمر ـ مسكون بكلِّ لغات العالم إنسانيّاً.

٢ ـ الغزو الثقافي ووهم «الآخر»

ليس ثمّة آخر على صعيد التواصل الثقافي بين الشعوب. إنَّ «الآخر» ليس سوى الواقع المختزَل، الواقع المجيَّر، الذي ترسمه الإيديولوجيا ـ بما هي امّحاءٌ للتفاعل والتواصل ـ وتحدّد عددَ مفرداته وعدَّتَهُ المعنويةَ. «الآخر» وهمٌ في مساره الإيديولوجي، كإغلاق للواقع المعيَّن وعليه، بقصد الإمعان في إفقاره من الداخل. وهو حقيقةٌ عندما نجد في هذا الإجراء محاولةً لتجنُّب «الآخر» الأقوى حضوراً من صانع الوهم؛ وعندما نجد أنَّ «الآخر» مطالَبٌ بدمه، ليدخل في سلطة الأقوى تابعاً ومعظّماً لسلطانه.

إنَّ مساحة الإيديولوجيا تتعاظم، وتبثُّ مؤثّراتها المدمّرة في كلّ منحى فكري وثقافي؛ فلا تعود الثقافة تُفهم إلاّ من المنظور الإيديولوجي، ولا تعود الإيديولوجيا عنصراً مشعّاً في الكيان الثقافي، بل تغدو الثقافة ـ هي ذاتها ـ كيانَ الإيديولوجيا. وإنَّ «صناعة» الآخر، على صعيد الممارسة السياسيّة، هي من قبيل قطع الجسور بين ما يُعتاش به سياسيّاً في الواقع ـ من قبل المنخرطين في لعبة السياسي (الحاكم، أو المسؤول السياسي هنا وهناك) في إطاره العربي ـ وما هو متداوَلٌ سياسيّاً في مجتمع «الآخر» الذي تنتفي فيه مثلُ هذه التقسيمات أو التصنيفات. فالسياسة في مجتمع «الآخر» لها قواعدُها المُمَسْرَحة ورموزُها الثقافيّة وأصالتها التاريخيّة المرافقة لحركيّة المجتمع في إطاره العام وعلى أكثر من صعيد، وأوجهُ خفائها وتعدُّديّةُ منابرها وتنوُّعُ أصواتها المتنافسة... بعكس ما هو متداول عربيّاً، حيث تحالُ اللُّعبةُ السياسيّةُ في بُعْدها الوحيد الأوحد (هذا إذا جازت تسميتها بلعبة) على شخص هو الحاكمُ الشموليُّ القرارات والمؤثّرُ الأوّلُ في كلّ قرار يُتّخذ هنا وهناك، وفي ظلّه تتوزّع شخصيّاتٌ تابعة، أو تحاكيه، ممارسة سلطةٍ حزبيّة أو غيرها...

و«صناعة» الآخر على صعيد الوعي التاريخي تمارس بتراً للتاريخ، ولحركيّة التاريخ، ومفهوم الزّمن في التاريخ؛ وذلك عندما يصبح التاريخُ ذا بُعْدٍ واحد، هو الماضي. والماضي هذا يتجلّى في علاقة صراعيّة بين طرفين لا يلتقيان، يشكّل «الآخر» في تجلّيه الوجودي والواقعي والثقافي كلَّ رموز السلبيّة والتآمر المتجدّدة باستمرار ضدّ ما يُسمَّى بـ «الذات» الحضاريّة في تمحورها المجتمعي.

وصناعة «الآخر» على صعيد الحضور الثقافي توطّد الانعزاليّة والاختزاليّة والقسر المفاهيمي في الوعي الثقافي، ومن خلال رموز الثقافة، حيث تتجلّى الثقافةُ المجتمعيّة هنا أسيرةَ خصوصيّةٍ تتوالد ذاتيّاً.

ويتجلّى كلُّ رمزٍ ثقافي في حقيقته تعبيراً عن تاريخ محدَّد، هو داخل في كيان مصطنع تصوُّري وفكري، يجد معناه فيما يركّز ويراهن ويلحّ على عقلنته، لتعميق المسافة الإيديولوجيّة بين ما هو معيش، وما يمثّله «الآخر». ويتمّ نسيان (أو تناسي) حقيقة حقانيّة هنا، وهي أنَّ الآخر لا يُفهم بعيداً عمّا يُسمَّى بـ «الذات/ الأنا»، وأنَّ الذات/ الأنا لا تُفهم بدون

إقصاءُ «الآخر» مردُّه إلى الخوف من رؤية «الذات» في تفكُّكها ودونيّة حضورها التاريخي وضحالة نشاطها الاجتماعي الفعلي.

حضور «الآخر» بكلِّ تجلّياته الثقافيّة... فإقصاء (واختزال ونفي) ما يُسمَّى بـ «الآخر» تعبيرٌ عن موقف تاريخوي لا يمتلك قدرةً على مواجهة ذاته، في مسارها التاريخي وتجلّيها الاجتماعي، والصُّعود إلى مستوى ما يعتبر الآخر «آخراً»، لمواجهته فعليّاً وعن جدارة. إنَّه الخوف من رؤية «الذات» في تفكُّكها، وتشرذم وضعها السياسي، ودونيّة حضورها التاريخي، وضحالة نشاطها الاجتماعي الفعلي.

ولعلَّ المتمعِّن في حركيّة الثقافي، بكلِّ أبعاده الفكريّة والعلميّة والسياسيّة وغيرها عربيّاً، ومنذ عقود زمنيّة طويلة، لابُدّ أن يتلمَّس هذا التأخُّر التاريخي في وعي تاريخيّة الذات كعلاقة ليست أحاديّة البُعْد، بل متنوِّعة ومتعدِّدة الأوجه، وفي عدم الارتقاء إلى مستوى ما هو راهن ومعاصر تاريخيّاً، والمساهمة في الإبداع التاريخي، وتأكيد الخصوصيّة الفاعلة.

٣ ـ الغزو الثقافي في ألفبائه الكبرى

أن نبحث عن حقيقة الغزو الثقافي ومعناه عربيّاً، هو أن نتعرَّف على الأرضيّة المجتمعيّة الثقافيّة، وهي أرضيّة تبدو ـ في العمق ـ ممسرِحة: أرضيّة إيديولوجيّة بامتياز.

الغزو الثقافي هو قبل كلِّ شيء «صناعة» داخليّة، ترتبط بمن يعتبرون أنفسهم «أهلَ الحلِّ والعقد» بمستويات عدّة. إنَّ الحقيقة القائلة بأنَّه كلَّما بدا مجتمع ما مفكَّك الأوصال متخلِّفاً ويعاني تأزُّمات أكثر، فإنَّ احتمال زيادة تجلّي الإيديولوجيا في أكثر أنواعها زيفاً وتدميراً للوعي النافذ (وللقدرة على الثبات في المكان والتأثير فيه تاريخيّاً)... لهي حقيقة ساطعة هنا. فعربيّاً، تبدو كلُّ محاولة لربط الغزو الثقافي بأعداء حقيقيّين، أو يتمّ «صنعهم» بتوليفات تاريخيّة أو نفسية أو إعلاميّة وثقافويّة، أو بخصوم مُحَتَّمين مداومين هنا وهناك لابُدّ من مواجهتهم باستمرار... تبدو مثل هذه المحاولة ـ من باب رفع العجز إلى مستوى البطولة زيفاً، والتعتيم على الحاضر ـ تعبيراً عن عجز بنيوي متشظٍّ في المجتمع. فـ «المجتمعات الحيّة» ـ إذا جاز التعبير ـ هي التي تشهد تواصلاً ديموقراطيّاً إشعاعيّاً بين مختلف مجالاتها الوظيفيّة والسياسيّة، وديمومةً أقوى وأعمق في تفاعلها مع سواها، وانفتاحاً على غيرها لتتأصَّل تاريخيّاً.

إنَّ الغزو الثقافي عربيّاً «ابتكار» إيديولوجي في العمق، لأنّه تعبير عن تأزُّمات اجتماعيّة وثقافيّة وسياسيّة عميقة! فاختزال التاريخ إلى حقيقة واحدة وحيدة ضدّية تكون هي التعبيرَ الأمثل عن حقيقة التاريخ (ضحيّته، أو مثاله البطولي، أو رمزه الكفاحي الأصيل... إلخ) أمرٌ يتأكَّد لدينا في جملة مفاهيم ذات نزوع ثنائي مرعب، لا لقاء أو تفاعل بينها: التقدُّميّة مقابل الرجعيّة؛ والتراث مقابل الحداثة؛ والأصالة مقابل المعاصرة؛ والذات التاريخيّة بكلِّ هشاشة تركيبها «الحضاري» الفاقد لعلاماته الثقافيّة والفكريّة مقابل «الآخر» بكلِّ أحاديّته المفهوميّة القهريّة أو العنفيّة الدخيلة على التاريخ ـ كما يبدو ـ. تلتقي في هذه الجمهرة المفاهيميّة المذكورة ومترادفاتها الأخرى، الأحزابُ والتنظيماتُ وأقلامُ الغالبيّة الساحقة من المثقَّفين. وهي عمليّة أدَّتْ عبر التاريخ، وتؤدِّي، إلى تقزيم حقيقة «الإجمَاع البشري»، ومعنى الثقافة والعلاقة مع الآخرين. ويمكن أن نجد خارج هذه التصنيفات المتضادّة جمهرة مفردات ـ مفاهيم، أو معجماً بالكلمات التي تعبِّر عن هذا الوعي العربي الشقي في فهم ذاته بكلِّ تناقضاتها: توحي بالتعدُّديّة المفاهيميّة، ولكنَّها تظلّ محكومة بوعيٍ بداواتي شقي، يمارس تدميراً أكبر لهويّة «العقل العربي».

الغزو الثقافي ابتكارٌ إيديولوجي، لأنَّه تعبيرٌ عن تأزُّمات اجتماعيّة وثقافيّة وسياسيّة عميقة!

فالغرب المتعدِّد، أو المتميِّز بالتعدُّد، لا يظهر في النهاية إلاَّ غرباً واحداً؛ والشرق في تنوُّع مصادره الإيديولوجيّة وصراعاته لا يظهر في النهاية إلاَّ شرقاً مقهوراً واحداً؛ والهويّة الاختلافيّة تظهر في حقيقتها بعيدةً عن هويّتها التاريخيّة؛ والجماهيرُ التي تُبنى باسمها وعليها الآمال تظهر في حقيقتها أبعدَ ما تكون عن هذا الواقع؛ والسلطان المتجلِّي بتعدُّديّة الآراء والمعبِّر عن الديموقراطيّة يظهر سيِّدَ البلاد الأوحد؛ والعدو الذي يُشار إليه بالبنان خارج المجتمع يجد نسختَه الأولى في من يمارس في المجتمع تفكيكاً فولكلوريّاً لحقيقته وعلى الصُّعُد كافّة؛ وعصر الاختلاف والتكنترونيات الذي يُستحضر هنا وهناك مصادَرٌ من حضوره عربيّاً!

ليست ثمّة إمكانيّة لفهم ما يُسمَّى بـ «الغزو الثقافي» إلاَّ إذا انطلقنا من نفي اعتباره غزواً، كما يُسمَّى تحت يافطات إيديولوجيّة مختلفة. وليست ثمّة إمكانيّة لفهم هذا «الغزو الثقافي» إلاَّ إذا حاولنا فهم الواقع أوّلاً وقبل كلِّ شيء. وإذَّاك سيظهر «الآخرُ» «كبشَ فداء» الذات بكلِّ فقرها التاريخي وحضورها المجتمعي وفاعليّتها المقيَّدة والمجيَّرة!

أن نفهم هذا الغزو ـ وهو موجود طبعاً، مادامت هناك تفاوتات مختلفة بين المجتمعات ـ هو أن نفهم حقيقة هذه الـ «نحن»، وما تتضمَّن من مفاهيم سياسيّة. فلنبدأ من هنا إذاً!

سوريا